سينتصرون على الحق بأى شكل وبأى لون. وهم مهما تحايلوا فى أساليب النكاية [1] فى الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين.

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأن يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج ﷺ ولم يشعروا ، وقال ﷺ : «شاهت [2] الوجوه» .

وشاء سبحانه ذلك ؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد ﷺ ، لا بالمواجهة ، ولا بتبييت المكر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ



يصور الحق سبحانه حال البشر ؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله ، وبمنهج الإله ؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله فى لحظات الأزمات ، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك. وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر.

وفى قريتنا - على سبيل المثال - كان الذى يشرف على رعاية صحة

---

(١) نكى العَدُوَّ نكايةً : أوقع به وهزمه وغلبه. والمراد بالنكاية هنا : أساليب أعداء الله فى محاربة الإسلام والتآمر عليه وعلى المسلمين ، وهى أساليب مآلها الفشل بإذن الله . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] . [اللسان ، والمعجم الوسيط : مادة (نكى) . . بتصرف].

(٢) شاهت الوجوه تَشُوهُ شَوْهاً : قَبُحَتْ . وفى حديث النبى ﷺ : أنه رمى المشركين يوم حنين بكفٍّ من حصى وقال : شاهت الوجوه. وفيه : قال لابن صيّاد : شاه الوجه. ويُقال للخطبة التى لا يُصلَّى فيها على النبى ﷺ : شوهاء أى : قبيحة. [اللسان : مادة (شوه)].

الناس حلاّق الصحة ، إلى أن تخرّج أحد أبناء القرية فى كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق. وفى أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفَافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مَريض وهو يريد أن يذهب به إلى الطبيب ، هو - إذن - لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب.

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين فى لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر. وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزُّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة «يارب». وأنت تجدها من أعتى الفُجَّار [1]، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ.

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾.

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون فى إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعو على نفسه بالضُّر ؛ مثلما قال المتنبى [2] :

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شَافياً   وحَسْبُ المنايا [3] أن يَكُنَّ أَمَانيَا

أى : يكفى أن يصل الإنسان إلى الدرجة التى يتمنى فيها الموت.

---

(١) الفجّار : جمع فاجر وهو المكثر من المعاصى والسيئات . والفجور أصله الميل عن الحق . قال ابن شميل : الفجور : الركوب إلى ما لا يحلّ . قال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ [القيامة] . وقال : ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار]. [اللسان : مادة (فجر) . . بتصرف].

(٢) المتنبى شاعر من شعراء الدولة العباسية له باعه فى الشعر

(٣) المنايا : جمع مَنِيَّة وهى الموت . والمَنى : القَدَر ، ومَنَى الله لك شيئاً أى : قدَّره لك . ومَنَى الله عليك خيراً يَمْنِي مَنْياً ، وبه سُمِّيت المنيَّة وهى الموت ؛ لأنها مقدَّرة بوقت مخصوص . [اللسان : مادة (منى)].

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر فى أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى ؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا [١] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ [٢] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ... ⁽٨⁾ ﴾ [الزمر]

ويقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾

ويقول سبحانه فى موضع آخر:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [٣] ⁽٥٣⁾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ⁽٥٤⁾ ﴾ [النحل]

إذن : فالحق سبحانه يأتى بها مفردةً مرّة ، ومرة يأتى بها جمعاً. ومرة يأتى بها مفردة على ألوان شتّى ، ومرة يأتى بها جمعاً بألوان شتّى ، ومرة يذكرها فى البر ، ومرة يذكرها فى البحر:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ... ⁽٦٧⁾ ﴾[الإسراء]

إذن : فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إذا ما أصابه ضرّ ،

---

(١) منيباً : راجعاً إلى الله بالتوبة . أناب إلى الله إنابة فهو منيب : أقبل إليه تائباً ورجع إلى الطاعة . قال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ⁽٥٤⁾ ﴾ [الزمر] ، وقال : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ⁽١٣⁾ ﴾ [غافر] .

(٢) خَوَّلَهُ الله نعمة : مَلّكه إياها . وهى مأخوذة من التخويل وهو التمليك . والمراد : إذا كشف الله عنه الضر ، ووهبه النعم نسى فضل الله عليه ووقع فى المعاصى . [لسان العرب - بتصرف] .

(٣) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالتضرع والدعاء إلى الله . [اللسان مادة : ج أ ر] .

ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه . ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ أى : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ . وهكذا تتناول الآية الإنسان فى تصرفاته فى الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلّب ، بل يقلّبه أهله ؛ لينام على جنبه ، وحين يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتى حركة القوة الثانية ؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشى ، ثم يمشى من بعد ذلك .

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ ، ولم تأت حركة المشى ؛ لأن المتحرك للمشى لا يقعده الضر ، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب ، فقد يناله الضر .

وتلك هى مراحل النقض لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشى بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف ، ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشى ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلّبه أهله [1] .

إذن : نقض كل شىء إنما يأتى على عكس بنائه ؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهى تنتهى بالعكس ؛ لأن النقض دائماً على عكس البناء .

---

(١) وهو القائل سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله في إخباره لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشاهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ [1] عَضُدًا [2] (٥١) ﴾ [الكهف]

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ... (٥١) ﴾ [الكهف]

وهذا القول يدل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء. فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء فى القرآن فقولوا : كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيف خُلقت السموات والأرض بغير ما جاء فى كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتم ؛ لأن الله هو الذى خلق السموات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به. ويقول الحق سبحانه:

---

(١) ضَلَّ يَضِلّ فهو ضالٌّ، وأضلَّ يُضِلّ فهو مُضِلّ، والمُضِلّ يكون ضالاً ولا يكتفى بضلال نفسه بل يُضِلُّ غيره أيضاً. وأضلَّه : جعله ضالاً، والضلال: ضد الهدى والرشاد. قال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]. وقال : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) ﴾ [طه] وقال: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) ﴾ [آل عمران].

(٢) والعَضُد من الإنسان وغيره: الساعد وهو ما بين المرفق إلى الكَتف. والمراد بالعَضُد هنا : العون والمساعدة. قال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا.. (٣٥) ﴾ [القصص].

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه : ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ . ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا : الإنسان كان فى الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم ،لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال .

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأى هذا المشهد ؛ ليقول لنا . والخلق الذى به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأى نقض لشىء - كما عرفنا - إنما يأتى على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالى الهدم بعد ذلك ، فما بُنى أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نَقْض كل شىء يأتى على عكس بنائه .

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفَةً [1] ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى فى التراب ، هذه مراحل الموت .

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح [2] ، وآخر مراحله فى الإيجاد هى الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة فى الموت .

---

(١) الجيفة : هى جثة الميت إذا أنتنت وكان لها رائحة . والجمع جيف وأجياف . (اللسان . مادة جيف) .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة] .

والله سبحانه وتعالى فى هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشى ؛ لأن الماشى عنده قدرة فلا ضرّ فى ذاته ، وإن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقى الشىء على صلاحه الممتع المريح ، فى الذات أو فى الخارج .

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة ، فليس عندك ضرّ ، لكن إذا حدث خلل فى أى عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة : هى ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً - مثلاً - فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدرى بها . ويوم أن تدرى بها فهذا يعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف وانتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : «آه يا عينى» ، و«آه يا أذنى» .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أى عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدى أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة فيمن حولك تتمثل فى أن يحققوا لك المتعة والصفاء بدون كدر . وبذلك تظهر منفعتهم لك[1] .

وكل إنسان له كبرياء ذاتى ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

ولا يذل الإنسان إلا حين يعانى من آفة[2] ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإن بدأت النعمة فى

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) آفة : عاهة ، أو مرض ، أو فساد ، أو نقص ، أو عيب . يقال : آفة الظَّرف الصَّلَف ، وآفة العلم النسيان .

الانقباض عن الإنسان ؛ فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الرقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع .

والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يغتر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه [1] قد خرجوا من جاههم .

إذن : فلا داعى للغرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شىء ، وليس لك شىء ذاتىٌّ فيك أبداً ؛ لذلك يجب أن ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوبًا من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو ينتبه . فلا داعى - إذن - لأن يغتر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

والمثال : قد تكون عاديْتَ طبيباً ، وهو الوحيد فى المكان الذى تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتى لك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يجب - إذن - أن تغتر أو تتعالى على أحد .

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ ..(١٢) ﴾ [يونس]

والكافر ما إن يمسّه الضرّ ؛ حتى يقع فى بئر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذى يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين

(١) الجاه : المنزلة والقدر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب] .

كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان ؟

ونسيان الإنسان أمر وارد فى تكوينه الفطرى الأول [١] ؛ لأن الإنسان حين يعيش في محيط ما . فهو يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجى ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحرُّك أبعاضه وخدمتها لبعضها البعض . ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً . وانظر إلى التعبير القرآنى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فمن يَعْبُد غيرَ الله - سبحانه وتعالى - يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذى ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقى ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى فى عالم الذر [٢] ؛ حينما

(١) ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] ، فجنس الإنسان فى تكوينه النسيان ، ولذلك تجاوز الشرع عن النسيان والخطأ وما استكره عليه الإنسان ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٩٨) . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وحسنه ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٢) طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٩١م .

أما النسيان بمعنى التناسى والتغافل عن أوامر الله والالتزام بمنهج الله سبحانه فلا يتجاوز الله عنه بل يؤاخذ الإنسان به ، يقول عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام] .

(٢) عالم الذر : هو يوم نثر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ،[1] وقال لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

قلنا :

﴿ بَلَىٰ ...(١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه.

وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريبا من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تلمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي[2] ... (٧٨) ﴾ [القصص]

ويقول : كنت محتاطاً وقد رتبت أمورى . ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أَخْذَ عزيز مقتدر.

فإذا مسكم الضر ؛ فلن تجدوا من البيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ، ما يغنيكم عن خالقكم ، وفى لحظة الخطر لا تستطيعون

---

(١) العهد الأول هو إشهاد ذرية بنى آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله ربُّ الخلائق كلها ، وهنا كان الإيمان بالوحدانية فطرة يسكن بها القلب ، ويطمئن معها العقل وتستريح النفس ، أما العهد الثانى فهو التكليف على يد الرسل فى افعل ولا تفعل ، وهو امتداد للعهد الأول ، ويجمع ذلك كله قوله : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ومن هنا كان الأمر والنهى وعليهما مدار الحساب .

(٢) أى : أن قارون أنكر فضل الله عليه ، فيما أنعم عليه به من الأموال والكنوز التى قال الله عنها : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص] .

الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون فى تلك اللحظة عهد الذَّر الأول ، وتعودون إليه سبحانه.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾

وقوله الحق: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا [1] عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ يصوّر الضرّ وكأنه يغطى الإنسان ويلفّه ، فلا منقذ له أبداً ؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطى كل الإنسان . وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله ؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه:

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد البطون وحدها هى الجائعة ، بل كل ما فى الأجسام جائع وخائف.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾

وكلمة ﴿مَرَّ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال: إن فلاناً مرّ علىّ ؛ مقابلها: وقف عندى.

ونفهم من قوله الحق : إن هذا الذى مسّه الضرّ كان له وقفة عند الله سبحانه ؛ حين لفّه الضرّ ولم يجد معيناً له غير الله تعالى ، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه

(١) كشف الشيء يكشفه كشفاً: أظهره أو رفع عنه ما يستره فى المحسوسات والمعانى . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ .. (٥٤)﴾ [النحل] كأن الضر غطاء ثقيل فوق الرؤوس كشفه الله وأزاله ، ومن الحسى قوله تعالى : ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا .. (٤٤)﴾ [النمل] - أما قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ .. (٤٢)﴾ [القلم] فهو كناية عن شدة الخوف والرغبة فى الفرار ، وقوله: ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦)﴾ [الإسراء] أى : إزالته وهو كشف معنوى . . القاموس القويم : ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الضرّ وينسى الإيمان ؛ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ وكأنه قد نسى تذلّله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هي الصفاقة [1] .

وينهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهنا تأتى قضية ثانية ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتى فى الكون كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذى زَيَّن لهم المرور إما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [2] ... ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]

وقوله تعالى هنا:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [يونس]

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً. والإنسان له عمل مكوَّن من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ، وإن كان القول مقابله الفعل ؛ فالاثنان عمل .

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية فى عمومها ، وفى

---

(١) أصل مادة (صفق) التصفيق باليد ، والضرب الذى يُسْمع له صوت ، ومنه صَفْقُ الباب أى : فتح الباب ثم إغلاقه مع حدوث صوت . ومنه الصفقة للعهد والبيع والشراء ، ومن حديث رسول الله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن تقاتل أهل صفقتك» . وهو أن يعطى الرجل عهدَه وميثاقه ثم يقاتله ؛ لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده فى يد الآخر كما يفعل المتبايعان . (انظر : اللسان - مادة صفق) فالمادة من الممكن أن نخرج منها بمقصود فضيلة الشيخ من هذه الكلمة .

(٢) المراد بالمرض هنا : النفاق . وهو خلق ذميم يصيب صاحبه بأشد الأضرار ، ويضر المجتمع كله . ووصف النفاق بالمرض إذ إن المرض هو السقم وهو ضد الصحة . وتمريض الأمور : توهينها . وريح مريضة : ضعيفة الهبوب . وكل ما ضَعُفَ فقد مرض . والرأى المريض ، أى : فيه انحراف عن الصواب . قال تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ .. ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة] [اللسان : مادة (مرض) .. بتصرف] .

خصوصها، وفى انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين : أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كُـلاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ[1] ﴿١٣﴾ ﴾

فإياكم أن تسوّل[2] لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ، فلستم بدعاً عن سابق الخلق .

و﴿ الْقُرُونَ ﴾[3] : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا

---

(١) المراد بالمجرمين : الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا . وجَرَمَ الإنسان : إذا عظم جُرْمه ، أي : أذنب . قال تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] [اللسان : مادة (جرم)] .

(٢) تسوّل لهم أنفسهم شيئاً : تُزيِّن لهم الخطأ . والتسويل : تحسين الباطل وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . قال تعالى : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] . [اللسان : مادة (سول)] .

(٣) القَرْن : الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن : أهل كل زمان ، مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم . يقال : القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك ، والجمع : القرون . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام] . وقال ﷺ : «خيركم قرنى (يعنى : أصحابى) ثم الذين يلونهم» ، يعنى : الذين أخذوا عن التابعين .

في شيء نسميهم «قرنا» . وقد يكون القرن في الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والبشر الذين يجتمعون في مائة سنة يسمونهم قرناً.

أو القرن جماعة يقترنون في شيء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد [1].

وقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فهل لو أمهلهم الله - تعالى - كانوا سيؤمنون ؟ لا ، فلله علمٌ أزليٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً.

والمثل من حياتنا وأعرافنا - ولله المثل الأعلى - نجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين ؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمِّم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعي المهندس الذي يبني له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثري ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات.

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتي واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه.

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى في الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجري به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما في

---

(١) الأمد: الغاية. والأمد: منتهى الأجل. قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .. (١٦)﴾ [الحديد]. [اللسان: مادة (أمد)].

الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً [1] ، فصمم المسألة على وفق ما علم .

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه - أزلاً - وسبق فى علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون .

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره . والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى فى أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هى قمة الظلم ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

وهم قد ظلموا فى قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا فى الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]

والواحد منهم ظالم ومظلوم فى آن واحد ؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطرى ، وملكة النفع العاجل الذاتى . فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل ؛ تخرج النفس اللوَّامة [2] ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهى تطلب تحقيق

---

(١) الغيب : ما غاب عن العيون وإن كان محصّلاً فى القلوب . والغيب : ما غاب عنك ولا يغيب عن علاّم الغيوب . قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ﴿٣﴾﴾ [البقرة] . وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات] . [لسان العرب : مادة (غيب) .. بتصرف] .

(٢) اللوَّامة : صيغة مبالغة من اللائمة . أى : كثيرة اللوم . والنفس اللوامة : هى التى تكثر من لوم صاحبها على أخطائه . قال تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة] .

الشهوات فقط ؛ لأنها نفس أمَّارة[1] بالسوء . أما إن اطمأنت النفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونفذت ما قاله الله سبحانه، فهى نفس مطمئنة[2] . ومن يظلم نفسه فهو الذى يتبع شهوات[3] نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً آجلاً[4] ؛ فيكون قد ظلم نفسه .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤيَّدين بالمعجزات ؛ ليبصّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى: أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذى خلقهم وقد علم أزلاً أنهم لن يختاروا الإيمان.

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذى يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه - سبحانه - على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية .

والمثال - ولله المثل الأعلى - أنت فى البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم: إن طعامكم فى الثلاجة ؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن

(١) أمَّارة : صيغة مبالغة من الآمرة . أى : كثيرة الأمر . والنفس الأمارة هى النفس المسيطرة والمتسلِّطة على صاحبها ، وقد ورد فى القرآن ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] .

(٢) النفس المطمئنة هى التى اطمأنت بالإيمان ورضيت بربها وأطاعته ؛ فهى ثابتة وساكنة بالجزاء الحسن من الله سبحانه . قال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر] [اللسان : مادة (طمن) . . بتصرف] . ذكر العارفون : إن النفوس سبعة : النفس الأمارة ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، والكاملة .

(٣) اشتهى الشىء شهوةً : أحبَّه ورغب فيه . والجمع : شهوات . قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٤) الأجل : نقيض العاجل . والآجلة : الآخرة ، والعاجلة : الدنيا . وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] . والأجل المسمى : يوم القيامة . [اللسان : مادة (أجل) . . بتصرف] .

تخرج أنت وزوجتك تقول لها: إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبناً وزيتوناً ؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن في الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهري .

لكن ما دام في الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا في القرآن قوله الحق:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ . [المسد]

وفي هذا حكم من الله تعالى بأن أبا لهب [1] سيموت كافراً ، وهذا حكم مُعْلَن ويُردَّد في الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله ﷺ ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير . ألم يسلم عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبي جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن ؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبي لهب .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمي أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب .

وسبب نزول السورة التي ذكر فيها ، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقال : «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس .

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الذى كان للأمم السابقة التى أهلكت فى القرون الماضية تجزى ممن يحدِّد كل شىء؛ لأن القضايا فى الكون واحدة. فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جمع خليفة [1]، وهو من يَخْلُف غيره. والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة:

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى قادر، وسميع، وعليم، وله كل صفات الكمال المطلق، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّى أثر قدرتك إلى غيرك، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّى قدرتك إلى سواك، فإن كنت قوياً؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً من قوتك. بل كل الذى تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً؛ فأنت قد تحمله عنه، وإن كان غير قادر على المشى؛ فأنت تأخذ بيده، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية، فيظل هو عاجزاً، وتظل أنت قادراً - كما أنت.

هذا هو حال الخلق: تجد غنياً وآخر فقيراً، ويُعطى الغنى للفقير من غناه، ويُعطى العالمُ للجاهل بعضَ العلم، لكنه لا يهبه مَلَكَةَ العلم؛ ليعلم.

---

(١) وقد تجمع خليفة على خلفاء، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف].